بقايا كتاب هام للجاحظ

بقلم شارل بلاّ

لم يخلُ اكتشاف مؤلّفات القاضي عبد الجبّار من أن يكون حافزًا قوياً على إنعاش الدراسات المتعلّقة بمذاهب المعتزلة ، ومن طريف الاتفاق أنّه ظهرت في غضون سنة واحدة مقالتان[1] قيّمتان موضوعهما العام مسألة « المعرفة » وروابطها بمذهب الجاحظ ؛ وبما أن مختارًا من آثار أبي عثمان محفوظٌ بلندن وباستنبول يتضمّن قسماً من « كتاب المسائل والجوابات في المعرفة[2] » ؛ رأيت أن أضع هذا النصّ الناقص تحت تصرف الباحثين دون أن أعلّق عليه ودون أن أحاول أن أبدّد بعض ظلمه استنادًا إلى ما نقله منه القاضي عبد الجبّار وأصحاب كتب الملل والنحل .

شارل بلاّ

---

(١) G. Vajda, *La Connaissance naturelle de Dieu selon al-Ǧāḥiẓ critiquée par les Mu'tazilites*, in *Studia Islamica*, XXIV (1966), 19-33; J. Van Ess, *Ǧāḥiẓ und die aṣḥāb al-ma'ārif*, in *Der Islam*, XLII/2-3 (1966), 169-178.

(٢) في النسخ للبريطاني ؛ رقم ١١٢٩ (رمز : ل) وفي Emanet Hazinesi رقم ١٣٥٨ (رمز : اخ) ؛ راجع Ramazan Şeşen, *Cāḥiẓ'in eserlerinin İstanbul Kütüphanelerindeki yazma nüshaları ve bunlar hakkında bazı yeni malumatlar*, in *Şarkiyat Mecmuası*, VI (1965), 126.

ولقد تفضّل الأستاذ رمضان ششن فقام بمقابلة مخطوط استنبول بنسختي ، فله أجزل الشكر .

من كتاب المسائل والجوابات في المعرفة

بالله نستعين وعليه نتوكّل وما توفيقنا إلاّ بالله

اختلف الناس في المعرفة اختلافاً شديداً ، وتباينوا فيها تبايناً مفرطاً ؛ فزعم قوم أن المعارف كلّها فعل الفاعلين ؛ إلاّ معرفة لم[1] يتقدّمها سببٌ منهم[2] ولم يُوجبها علّةٌ[3] من أفعالهم ؛ ولم يرجعوا إلى معرفة الله ورسوله[4] والعلم بشرائعه ولا إلى كل ما فيه الاختلاف والمنازعة وما لا تعرف[5] حقائقه إلاّ بالتفكّر والمناظرة دون [ل ١٧٥ ظ] درك الحواسّ الخمس ؛ فزعموا أن ذلك أجمع فعلهم على الأسباب الموجبة[6] والعلل المتقدّمة ؛ وجعلوا مع ذلك سبيل المعرفة بصدق الأخبار كالعلم بالأمصار النائية[7] والأيام الماضية كبَدْر وأُحُد والخَنْدَق وغير ذلك من الوقائع [اخ ٨٢ و] والأيّام ؛ وكالعلم بثَرْغابَة والأندلس والصين والحَبَشة وغير ذلك من القُرى والأمصار ، سبيل[8] الاكتساب والاختيار ؛ إذ[9] كانوا هم الذين نظروا حتى عرفوا فصل[10] ما بين المجيء الذي لا يُكذب [في] مثله والمجيء الذي يمكن الكذب في مثله ؛ فزعموا أن جميع المعارف سبيلها سبيل واحد[11] ووجوه دلائلها وعللها متساوية ، إلاّ ما وجده[12] الحواسّ بغتةً وورد على النفوس في حال عجز أو غفلة ، فكان[13] هو القاهر للحاسّة والمستولي على القوّة ؛ من غير أن يكون من البصر فتحٌ ومن السمع إصغاء[14] ومن الأنف شمّ ومن الفم ذوق ومن البشرة[15] مسّ ؛ فإنّ ذلك الوجود فعل الله دون الإنسان على ما طُبع عليه البشر ورُكّب عليه الخلق .

---

١) سقط من ل .
٢) ل : منه .
٣) ل : عليه .
٤) كذا في ل واخ ؛ والصواب : ورسله .
٥) ل و اخ : يعرف .
٦) و اخ : للرجية .
٧) ل و اخ : القائمة .
٨) ل و اخ : وسبيل .
٩) ل : إذا ؛ اخ : ان .
١٠) ل و اخ : فضل .
١١) اخ : واحدة .
١٢) ل واخ : وجد .
١٣) ل : وكان .
١٤) ل : للصفا .
١٥) ل : للبشر .

قالوا [ل ١٧٦ و] : فاذا كان دَرَك الحواسّ الخمس : إذا تقدّمته الأسباب وأوجبته العلل : فعلٌ المتقدّم فيه والموجِب له ؛ ودركُ الحواسّ أصل المعرفة وهو المستشهد على الغائب والدليل على الخفيّ ؛ وبعد صحّته تصحّ المعارف وبعد فساده تفسد ؛ فالذي تستخرجه الأذهان منه وتستشهد عليه كعلم التوحيد والتعديل والتجوير[1] وغامض التأويل وكلّ ما أظهرته العقول بالبحث وأدركته النفوس بالفكر من كلّ علم وصناعة ، كالحساب[2] والهندسة والصياغة والفلاحة : أجدرُ أن يكون فعلَه والمنسوبَ إلى كسبه .

قالوا : فالدليل على [أنّ] درك الحواسّ فعلُ الإنسان على ما وصفنا واشترط[نا] من إيجاب الأسباب وتقدّم العلل أن الفاتحَ بصره لو لم يفتح لم يُدرك ؛ فلمّا كان البصر قد يوجد مع عدم الإدراك ولا يعدم الإدراك مع وجود الفتح ، كان ذلك دليلاً على أن الإدراك إنما كان لعلّة الفتح ولم يكن لعلّة البصر ، لأنّه لو كان [ل ١٧٦ ظ] لعلّة صحة البصر كانت الصحّة لا توجد أبدًا إلاّ والإدراك موجود[3] ؛ فاذا كانت الصحّة قد توجد مع عدم الإدراك ولا يعدم[4] الإدراك مع وجود الفتح ، كان ذلك شاهدًا على أنّه إنما كان لعلّة الفتح دون صحّة البصر .

وقالوا : ولأنّ طبيعة البصر قد كانت غير عاملة حتى جعلها الفاتح بالفتح عاملةً ، ولأن الفتح علّة الإدراك ومقدمة بين يديه وتوطئةٌ له ، وليس الإدراك علّةً للفتح ولا مقدّمةً بين يديه ولا توطئةً له ، فواجب أنْ يكون فعلَ الفاتح لأن السبب إذا كان موجباً فالمسبّب تبعٌ له .

[ا خ ؛ ٨ ظ] ... ثم قالوا بعد الفراغ من درك الحواسّ في معرفة الله ورسله[5] وكلّ ما فيه الاختلاف والتنازع : إن ذلك أجمع لا يخلو من أحد أمرين : إمّا أن يكون يحدث من الإنسان لعلّة النظر المتقدم ، أو يكون يحدث على الابتداء لا عن علّة موجبة وسبب متقدم ، فإن كانوا أحدثوه على الابتداء فلا فعلَ أولى بالاختيار ولا أبعد من الاضطراز منه ؛ وإن كان إنما كان لعلّة النظر المتقدم كما قد دللنا في صدر الكلام على أنّ درك الحواسّ فعلُ [ل ١٧٧ و] الإنسان إذا تقدّم منه[7] سببه ، فالعلم بالله

(١) ل : والتحرير .
(٢) ل و اخ : الحساب .
(٣) ل : موجوداً .
(٤) ل : يعدم .
(٥) ل : رسوله .
(٦) ل و اخ : ولا .
(٧) ل و اخ : في ؛ ولعل الصواب ما اثبت .

وكتبه ورسله أجدر أن يكون فعله : إذا[1] كان من أجل نظره[2] علم ومن جهة بحثه أدرك ؛ فهذا جُمَل دلائل هؤلاء القوم ورئيسهم بشر بن المعتمر .

ثم هم بعد ذلك مختلفون في دَرَك الحواسّ إلاّ ما اعتمد[3] إدراكه بعينه وقصد إليه بالفتح والإرادة : لأن الفتح نفسه لو لم يكن معه قصد وإرادة ما كان فعلَ الفاتح ؛ فكيف يجوز أن يكون الإدراك فعله من غير قصد ؟ ولو جاز أن يكون الفتحُ فعلَ الإنسان من غير أن يكون أراده[4] وقصد إليه : ما كان بين فعل الإنسان وبين فعل غيره فرقٌ : لأنه كان لا يجوز أن يكون ذهاب الحَجَر إذا لم يدفعه ولم يقصد إليه ولم[5] يخطر له على بال : فعلَه ؛ فكذلك الإدراك إذا لم يخطر على باله ولم يقصد إليه ولم يتعمّده : لا يكون فعلَه .

[...] وليس على المخبر عن[6] خصمه والواصف مذهبَ غيره أن يجعل باطلهم حقاً وفاسدهم صحيحاً : [ل ١٧٧ ظ] ولكن عليه أن يقول بقدر ما تحتمله النحلة وتتّسع له المقالة ؛ وعليه أن لا يحكي عن خصمه ويخبر عن مُخالفه[7] إلاّ وأدنى منازله أن لا يعجز عمّا بلغوه ولا يعيي[8] عمّا أدركوه .

[...] وقد زعم آخرون أن المعارف ثمانية أجناس : واحد منها اختيارٌ وسبعة منها اضطرار ؛ فخمسة منها دَرَك الحواسّ الخمس ، ثم المعرفة بصدق الاخبار كالعلم بالقرى والأمصار والسير والآثار ؛ ثم معرفة الإنسان إذا خاطبه[9] صاحبُه أنّه[10] موجّهٌ[11] بكلامه إليه وقاصدٌ به نحوه ؛ وأمّا الاختيار فكالعلم بالله ورسله وتأويل كتابه والمستنبط من علم الفُتيا وأحكامه وكلّ ما كان فيه الاختلاف[12] والمنازعة وكان سبيل علمه النظر والفكرة ، ورئيس هؤلاء [ا خ ٨٣ و] أبو الحق[13] .

وزعم معمّر[14] أن العلم عشرة أجناس ، خمسة منها درك الحواسّ والعلم السادس كالسير الماضية والبلدان النائية[15] ؛ والسابع علمُك بقصد الخاطب

١) ل و اخ : او .
٢) ل : نظرة .
٣) اي : تعمد الانسان ادراكه .
٤) اخ : ارادة .
٥) اخ : اذا لم .
٦) ل و اخ : نفسه .
٧) ل : مخالفة .
٨) ل : يعيا .
٩) ل : خاطب .
١٠) ل : ان .
١١) ل و اخ : موجه .
١٢) ل : لختلاف .
١٣) هو النظام .
١٤) ل : معمرا .
١٥) ل و اخ : القائمة .

إليك وإرادته إيّاك عند المحاورة[1] والمنازعة ، وقبل ذلك [ل ١٧٨ و] وجود الإنسان لنفسه : وكان يجعله أوّل العلوم ويقدمه على درك الحواس وكان يقول : « ينبغي أن يتقدّم وجود الإنسان لنفسه على وجوده لغيره » ؛ وكان يجعله علماً خارجاً من درك الحواس لأن الإنسان لو كان أعمى[2] لأحسّ نفسه ولم يحسّ » [..... [3] ولو كان أصمّ لأحسّ نفسه ولم يحسّ[4] » صوته ولو كان أخشم لأحسّ نفسه ولم يحسّ[5] رائحته : وكذلك سبيل المذاقات والملامس ؛ فلمّا كان المعنى كذلك وجب أن يُفرد من درك الحواسّ ويُجعل علماً ثامناً على حياله[6] وقائماً[7] بنفسه ؛ ثم جعل العلم التاسع علم الإنسان بأنّه[8] لا يخلو من أن يكونَ قديماً أو حديثاً ؛ وجعل العلم العاشر علمه بأنّه محدث وليس بقديم .

[...] ولستُ آلو بهذا[9] الكلام والإيجاز في الإدخال على بِشْر بن المُعتمِر في درك الحواسّ ثم على أبي إسحق في ذلك وفي غيره ممّا ذكرت من مذاهبه وتركه قياس ما بنى عليه إن شاء الله لتصير إلى الكلام في المعرفة فإني إليه أجريتُ وإيّاه اعتمدت ، ولكنّي أحببت أن « أبدي فساد[10] أصولهم » قبل فروعهم ، فإنّ [ل ١٧٨ ظ] ذلك أقبل للداء وأبلغ في الشفاء وأحسم للعرق وأقطع للمادة وأخفّ في المؤونة على مَن قرأ الكتاب وتدبّر المسألة والجواب : وبالله ذي المنّ والطول نستعين .

فصل من ردّه على أبي إسحق النظّام وأصحابه

يقال لهم : حدّثونا عن العلم بالله ورسله[11] وتأويل كتبه وعن علم القَدَر وعلم المشيئة والأسماء والأحكام ، أباكتساب[12] هو أم باضطرار ؟

فإن زعموا أنّه باكتساب ؛ قيل لهم : فخبّرونا عن علمكم بأنّ ذلك أجمعَ اكتسابٌ ، أباكتساب[12] هو أم باضطرار ؟

فإن قالوا : باكتساب ، قيل لهم : أوَليس اعتقادُ خلافِ ذلك أجمعَ باكتساب ؟

---

١) اخ : اغارة .
٢) ل : عمى .
٣) لعلها : صورته .
٤) سقط من ل و اخ .
٥) سقط من ل .
٦) ل : خياله .
٧) ل : وقائلا .
٨) ل و اخ : فانه .
٩) ل و اخ : الواجد ذا ؛ ولعل الصواب ما اثبت
١٠) ل : ايرى افساد ؛ اخ : ابدا افساد ؛ ولعل الصواب : ابدأ بافساد .
١١) ل : ورسوله .
١٢) ل : ابكتساب .

فان[1] قالوا : نعم ؛ قيل لهم : فإذا كان اعتقاد الحق واعتقاد الباطل باكتساب ؛ [أ]فليس كل واحد من المكتسبين عند نفسه على الصواب؟

فان[2] قالوا : نعم ، قيل لهم : أوليس كل واحد منهما ساكن القلب [ا خ ٨٣ ظ] إلى مذهبه واختياره؟[3] .

فإن[4] قالوا : نعم ؛ قيل لهم : فما يؤمّن الحقّ من الخطإ[5] وليس سكون القلب وثقته علامةً للحقّ لأن ذلك لو كان علامةً لكان المبطل محقاً إذ[6] كان فيه قد يجد من السكون والثقة ما لا يجد المحقّ ؟ قلنا[7] : وما معنى خلافه إلاّ أن يكون المبطل شاكّاً أو يكون عارفاً بتقصيره أو يكون [ل ١٧٩ و] مكترثاً لوهن يجده ؟ فإذا لم يكن كذلك فلا فرق بين المعتقدين .

فإن قالوا : إنّ فرق ما بينهما أنّ سكون قلب المحقّ حقٌّ في عينه وسكون قلب المبطل باطلٌ في عينه ، قلنا : أوليس ذلك غير محوّل لسكون المبطل عن الثقة إلى الاضطراب ولا مغيّره إلى الاكتراث ؟

فإن[8] قالوا ذلك ، قيل لهم : فما يؤمّن المحقّ أن يكون سكونه أيضاً باطلاً في عينه إذ[9] كان سكونه لا ينفصل من سكون المبطل ، ولئن كان الفرق[10] بينهما ظاهر[11] الاجتهاد والعبادة ، فمَن أظهرُ اجتهاداً من الرهبان في الصوامع والخوارج في بذل النفوس ؟

فإن قالوا : الفرق بينهما أن المحقّ قد استشهد الضرورات والمبطل لم يستشهدها[12] ، قلنا : فهل يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهد الضرورات أو لم يستشهدها ، حتى لو سأله سائلٌ فقال : « ما يؤمّنك من الخطإ ؟ » — لقال : « استشهادي الضرورات » ؟

فإن زعموا أنّ المبطل لا يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهد الضرورات [ل ١٧٩ ظ] لأنّ ذلك هو علامة الحقّ والفصل بينه وبين الباطل ؛ قلنا : وهل رأيتم أحداً اكتسب علماً قطّ أو نظر في شيء إلاّ وأوّل[13] نظره إنما هو على أصل الاضطرار ؟ لأن المفكّر لا يبلغ من جهله أن يستشهد الخفيّ ،

---

١) ا خ : فاذا .
٢) ا خ : فاذا .
٣) سقط من ل .
٤) ل و ا خ : فاذا .
٥) ل : الخطى .
٦) ل : اذا .
٧) لعل جواباً قد سقط .
٨) ل و ا خ : فاذا .
٩) ل و ا خ : اذا .
١٠) ل و ا خ : السكون .
١١) لعل الصواب : اظهار .
١٢) ل : يستشهد .
١٣) سقط من ا خ .

بل من شأن الناس أن يستدلّوا بالظاهر على الباطن إذا أرادوا النظر والقياس ؛ ثم هم بعد ذلك يُخطئون أو يُصيبون ؛ قلنا[1] : فينبغي أن يكون كلّ مبطل في الأرض قد علم حين يقال له : «ما يؤمّنك أن تكون مبطلاً ؟» أنّه لم يستشهد الضرورات وأنكر أصلَه الذي قاس عليه واستنبط منه ضرورة ؛ وأنّه إنما قال بالعسف أو بالتقليد ؛ وإذا كانوا كذلك فهل يخلو أمرهم من أن يكونوا قد علموا أنهم على خطإ أو يكونوا شكّاكاً أو يكونوا عند أنفسهم مستشهدين للضرورات وإن كانوا قد تركوا ذلك عند بعض المقدّمات ؛ فإن كانوا قد علموا أنهم لم يستشهدوا الضرورات[2] وإن كانوا شكّاكاً فيها فليس على ظهر الأرض مخطئ إلاّ وهو [ل ١٨٠ و] عالم بموضع خطائه أو شاكّ [ا خ ٨٤ و] فيه ، أو كانوا عند أنفسهم مستشهدين للضرورات ؛ فما يؤمنكم أن تكونوا كذلك ؟

فإن قالوا : ليس أحدٌ يعرف أن علامة الحقّ استشهاد الضرورات غيرُنا ؛ قلنا : أوَ[3] لستم — معشر أبي إسحق النظّام — تختلفون[4] في أمور كثيرة وقد[5] كنتم تخالفون صاحبكم خلافاً كثيراً ، وكلكم إذا سأله سائل: [ما] يؤمنك أن تكون[6] على باطل ؟» — قال: «لأني مستشهدٌ للضرورات» : فهل يخلو أمركم من أحد وجهين : إمّا أن تكونوا صادقين على أنفسكم أو كاذبين عليها ؛ فإن كنتم صادقين فقد صار قلب المحقّ كقلب المبطل إذ[7] كان كلّ واحد [منهما] عند نفسه مستشهداً للضرورات ؛ وإن كنتم كاذبين فهل منكم محقّ إلاّ وهو يلقى الخصم بمثل دعواه في استشهاد الضرورات ؟ وهل منكم واحد على حياله[8] محقّاً [كان] أو مبطلاً إلاّ وجوابه لنا مثل جواب صاحبه ؟ فإذا كانت القلوب قد تكون عند أنفسها [ل ١٨٠ ظ] مستشهدةً للضرورات وهي غير مستشهدة لها وكون القلب كذلك هو علامة الحقّ ، فما الفرق بين قلب المحقّ والمبطل ؟ ومع ذلك إنّا وجدنا صاحبكم قبلكم ووجدناكم بعده قد رجعتم عن أقاويل كثيرة بعد أن كان جوابكم لمن سألكم : «ما يؤمنكم أن تكونوا[9] على باطل ؟» ، أن تقولوا[10] : «استشهادنا للضرورات» ، ونحن لو سألناكم عمّا رجعتم عنه :

---

١) لعل جواباً قد سقط .
٢) ل : الضروريات .
٣) ل : ولستم .
٤) ل و اخ : يختلفون .
٥) سقط من اخ .
٦) ل و اخ : يكون .
٧) ل : اذا .
٨) ل : حياله .
٩) ل و اخ : يكونوا .
١٠) ل و اخ : يقولوا .

فقلنا لكم : « لعلكم على خطإ ولعلكم من هذه الأقاويل على غرر » لم يعد جوابكم استشهاد الضرورات .

٥

[...] ثم إني واصفٌ قولي في المعرفة ومجيبٌ خصمي في معنى الاستطاعة وفي أيّ أوجُهِها[1] يحسن التكليف وتثبت الحجّة ، ومع أيّها[2] يُسمح التكليف وتسقط الحجّة[3] .

فأوّل ما أقول في ذلك أن الله — جلّ ذكره — لا يكلّف أحدًا فعل شيء ولا تركه إلاّ وهو مقطوع العذر زائل الحجّة ولن[4] يكون العبد كذلك إلاّ وهو صحيح البنية معتدل المزاج وافر الأسباب مخلّى السرب عالم بكيفيّة الفعل حاضر النوازع [ل ١٨١ و] معدّل الخواطر عارف بما عليه وله ؛ ولن[5] يكون العبد مستطيعاً في الحقيقة دون هذه الخصال المعدودة والحالات المعروفة التي عليها مجاري الأفعال ومن أجلها يكون الاختيار ولما يحسن التكليف ويجب[6] الفرض ويجوز العقاب ويحسن الثواب ؛ ولو كان الإنسان متى كان صحيحاً كان مستطيعاً لكان[7] مَن لا سُلَّمَ له للصعود مستطيعاً ؛ ولن[8] يكون [اخ ٨٤ ظ] أيضاً مع ذلك كلّه للفعل مختارًا وله في الحقيقة دون انجاز مستطيعاً إلاّ وجميع أوامره في وزن جميع زواجره ؛ حتى إذا قابلت بين مرجوّهما[9] ومخوفها[10] وبين تقديم اللذّة وخوف الآخرة وبين تعجيل المكروه وتأميل[11] العاقبة وجدتها في الجذب[12] والدفع وفي القبض والبسط سواء ؛ ولا يكون ايضاً كذلك إلاّ وبقاؤه في الحال الثانية معلوم لأن الفعل حارس والطباع محروسة[13] والنفس عليها موقفة ؛ فإن كان الحارس أقوى من طباعها كان ميل النفس معه [ل ١٨١ ظ] طباعاً ، لأن من شأن النفس الميلَ إلى اقوى الحارسين[14] وأمتن السببين ؛ ومتى كانت القوّتان متكافئتين كان الفعل أختيارًا ومن حدّ[15] الغلبة خارجاً ؛ وإن كانت الغلبة تختلف في اللين والشدة وبعضها أخفى وبعضها أظهر — كفرار

١) ل و اخ : وجهها .
٢) اخ : انها .
٣) سقط من ل .
٤) ل واخ : وان .
٥) اخ : وان .
٦) اخ : ويجب .
٧) ل و اخ : لكن .
٨) اخ : وان .
٩) ل : مرجوها .
١٠) ل : ومخوفها .
١١) كذا ولعل الصواب : تأجيل .
١٢) ل : الحذر ، اخ : الحذر .
١٣) كذا في الاصل ، والصواب : محروس .
١٤) ل : الحارس ؛ اخ : بدون فقط .
١٥) ل : جد .

الإنسان من وَهَج السموم إذا لم يحضره دواعي التدبر وأسباب الفكر وهو من قلب الحريق أشدّ نفرة وأبعد وثبة وأسرع حركة ؛ ومتى قويت الطبيعة على العقل أوهنته وغيّرته ؛ ومتى توهّن وتغيّر تغيّرت[1] المعاني في وهمه وتمثّلت له على غير حقيقتها ؛ ومتى كان كذلك كان عن إدراك ما عليه في العاقبة [أبعد][2] وزيّنت له الشهوات ركوب ما في العاجلة ؛ ومتى أيضاً فضلت[3] قوى عقله على قوى طبائعه أوهنت طبائعه ، ومتى كانت كذلك آثر الحزم والآجلة على اللذّة العاجلة طبعاً لا يمتنع منه وواجباً[4] لا يستطيع غيره ؛ وإنما تكون النفس مختارة في الحقيقة [ل ١٨٢ و] ومجانبة لفعل الطبيعة إذا كانت أخلاطُها معتدلة وأسبابها متساوية وعللُها متكافئة ؛ فإذا عدّل الله تركيبه وسوّى أسبابه وعرّفه ما عليه وله ، كان الإنسان للفعل[5] مستطيعاً في الحقيقة وكان التكليف لازماً له بالحجة .

ولولا أنّك تحتاج إلى التعريف بأنّ المأمور المنهيّ لا بد له من التسوية والتعديل لما قال الله تعالى ﴿ والأرض وما طحاها ونفس وما سوّاها فألهمها فجورَها وتقواها ﴾[6] ؛ ولو جاز أن يعلم موضع غيّها ورشدها من غير أن يسوّيها ويبيّنها لكان ذكرُ التسوية فضلاً من القول ؛ والله يتعالى عن هذا وشبيهه علوّاً كبيراً .

[....] فصل في جواب مَن يسأل عن المعرفة أباضطرار[7] هي أم باكتساب :

قلنا : إنّ الناس لم يعرفوا الله إلاّ من قبَل الرسُل ولم يعرفوه من قبل الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والزيادة والنقصان ؛ على أنّا لا نشكّ أنّ رجالاً [ل ١٨٢ ظ] من الموحّدين قد عرفوا وجوهاً من الدلالة على الله بعد أن عرفوه من [اخ ٨٥ و] الرسل ، فتكلّفوا من ذلك ما لم يجب عليهم وأعيوا من غامض العلم ما لا يقدر عليه عوامّهم ، من غير أن يكونوا تكلّفوا ذلك لشكّ وجدوه أو حيرة خافوها ، لأنّ أعلام الرسل متّسعة ودلائلها واضحة وشواهدها متجلّية وسلطانها قاهر وبرهانها ظاهر .

فإن قالوا[8] : أباكتساب[9] علموا صدق الرسل أم باضطرار ؟ — قلنا : باضطرار .

---

١) ل و اخ : وتغيرت .
٢) زيادة يقتضيها السياق .
٣) اخ : فصلت .
٤) ل : وواجبا .
٥) ل : للعقل .
٦) سورة الشمس ، ٩١ : ٦-٨
٧) ل و اخ : باضطرار .
٨) ل و اخ : قال .
٩) ل : بالكتساب .

فإن قالوا : فخبّرونا على مَن عاين النبيّ صلى الله عليه وسلّم وحجّته والمتنبي وحيلته كيف يعلم[1] صدق النبي من كذب المتنبي وهو لم ينظر ولم يفكّر ؟ فان قلتم إنّه نظر وفكّر فقد رجعتم إلى الاكتساب ؛ وإن قلتم إنّه لم ينظر ولم يفكّر : فلِمَ عرف الفضل[2] بينهما دون أن يجهله ؛ وكيف علم ذلك وهو لا يعرف الحجّة من الحيلة ؟ وما يؤمنه أن يكون مبطلاً إذ[3] كان لم ينظر في أمور الدنيا ولم يختبر معانيها حتى يعرف الممتنع من الممكن وما لا يزال يكون بالاتّفاق ممّا لا يمكن ذلك فيه ؛ وكيف ولِمَ[4] يعرف العادة ومجرى الطبيعة . وإلى أين تبلغ الحيلة [ل ١٨٣ و] وأين تعجز الحيلولة[5] ؛ وعند أيّ ضرب تستطان[6] وعلى أيّ ضرب تتوان[7] ، ولِمَ عرف صدق النبيّ حين عاين شاهده وأبصر أعاجيبه من غير امتحان وتعقّب لمعانيها دون أن يعتقد صدق المتنبي إذا أورد عليه أعاجيبه وخدّعه وحيلته ؟ بل كيف لم يعرف الله حين وقع بصره على الدنيا من غير فكرة فيها وتقليب[8] لأمرها ، والدنيا بأسرها دلالة عمّا[9] عرف صدق النبي حين أبصر دلالتها من غير تفكير فيها وتقليب[10] لأمرها ، وقد علمنا أن الدنيا دالّة كما[11] أن شواهد النبيّ دالّة ؛ ومتى كان ظاهر أحدهما يُغني عن التفكير كان الآخر مثله ، إذ[12] لم يكن في القياس بينهما فرقٌ ولا في المعقول فصل[13] ؟ قلنا : إن تجارب البالغ قبل أن يهجم على دلالات الرسل تأتي[14] على جميع ذلك ؛ ولعمري لو[15] كان هجومه عليها قبل المعرفة بمجاري [الأمور] وتصريف الدهور وعلقات[16] الدنيا والتجربة لتصريف أمورها ؛ لمّا وصل [ل ١٨٣ ظ] إلى معرفة صدق النبيّ إلاّ بعد مقدّمات كثيرة وترتيبات منزّلة لأن مشاهد الشواهد إنما يتطرّد المشاهدة لها إذا كان قد جرّب الدنيا وعرف تصرّفها وعادتها قبل ذلك ؛ ولو لم يكن جرّبها قبل ذلك حتى[17] عرف منتهى قوّة بطش الإنسان وحيلته وعرف الممكن من

---

١) ل : تعلم .
٢) ل : الفضل .
٣) ل : اذا .
٤) اخ : لم .
٥) اخ : الحيلو .
٦) ل واخ : يستطان .
٧) ل واخ : يقتوان .
٨) ل : وتقلب . —
٩) كذا ، ويغلب على الظن ان الصواب وقد .
١٠) ل : او تقليب .
١١) ل : هل .
١٢) ل و اخ : اذا .
١٣) ل واخ : فضل .
١٤) ل و اخ : يأتي .
١٥) ل واخ : ان لو .
١٦) اخ : بدون نقط .
١٧) ل : حين .

المستنع وما يمكن كونه[1] بالاتّفاق ممّا لا يمكن. لمّا عرف [ا خ ٨٥ ظ] ذلك.

فإن قالوا: وكيف جرّب ذلك وعقلَه وأتقنه وحفظه، وهو طفل غرير وحَدَث صغير؛ لأن غير البالغ طفلٌ إلى أن يبلغ وحين بلغ[2] فقد هجم على النبيّ وشواهده أو هجم عليه النبيّ بشواهده إمّا بخبر متّبع أو بعيان شاف: ففي أيّة الحالين جرّب وعرف وميّز وحفظ: أفي[3] حال الطفولة والغرارة — وهذا غير معروف في التجربة والعادة، والذي عليه ركّبت الطبيعة — أم في حال البلوغ والتمام — وحال البلوغ هي الحال التي [فيها] أبلغه الله الرسالة وقاده إلى رؤية الحجّة واستماع البرهان ومخرج الرسالة؟ فإن[4] كان الأمر [ل ١٨٤ و] كما تقولون فقد كان ينبغي: أن لا يصل إلى العلم بصدق النبيّ وقد أراه برهانه وأسمعه حجّته[5] حتى تمكّث بعد ذلك دهراً يتمحن الدنيا ويتعقّب أمورها ويعمل التجربة فيها؛ فإن كان ذلك كذلك فلم سمّيتموه بالغاً وليس في طاقته بعدُ العلم بفصل[6] ما بين النبيّ والمتنبي؟ — قلنا: إن التجربة على ضربين: أحدُهما [أن] يقصد الرجل إلى امتحان شيء ليعرف مخبره كما[7] عرف منظره؛ والآخر أن يهجم على علم ذلك من غير قصد؛ وقد يسمّى الإنسان مجرّباً قاصداً أو هاجما؛ فيزعم أن البالغ مذ[8] سقط من بطن أمّه إلى أن يبلغ متقلّبٌ في الأمور المختلفة ومصرّفٌ في خلال الحالات المعروفة[10] التي تلقحه الدنيا بما تورد عليه من عجائبها؛ ويزداد في كل ساعة معرفةً وتثبيده[11] الأيّام في كلّ يوم تجربةً؛ كما يزداد لسانه قوّةً وعظمُه صلابةً ولحمه شدّةً، من أمّ تتعاهده وظئر تُلهيه وطفل يلاعبه وطبيب يعالجه ونفس تدعوه وطبيعة تعينه وشهوة تبعثه [ل ١٨٤ ظ] ووجع يقلقه؛ كما يزيد[12] الزمان في قوّته ويشدّ من عظمه ولحمه ويزيده الغذاءُ عظماً وكثرةُ الغضب والتقليب جَلَداً؛ فاذا درج رحا وضحك وبكى وأمكنه أن يكسر إناءً أو يكبّه[13] أو يسوّد ثوباً أو يضرب صبيّاً [فضرب] دُبُرَه[14] الخادم وانتهره[15] القيّم: فلا يزال ذلك دأبه ودأبهم

1) ل: قوله.
2) ل و اخ: يبلغ.
3) ل: في؛ اخ: اوفى.
4) ل: فاذا.
5) اخ: حجته.
6) يفصل.
7) ل: واخ: ما.
8) ل: قد.
9) ل: اغتلة؛ اخ: اغتلة.
10) ل واخ: المعرقة.
11) اخ: ويثيده.
12) ل و اخ: ويزيده.
13) ل و اخ: يكبيه.
14) ل: او يضرب دبره الخادم؛ اخ: او يضرب صبياً دبره الخادم.
15) اخ: وانتهره.

حتى يفهم الإغراء والزجر والتعدية[1] والانتهار : كما يعرف الكلب اسمه إذا ألحّ عليه الكلّابُ به وكما يعرف المجنون لقبه وكما يحذر الفَرَس من وقع السوط لكثرة وقعه بعد رفعه عليه .

[...] فإذا استحكمت هذه الأمور في قلبه وثبتت[2] في خلده وصحّت في معرفته فيه [ا خ ٨٦ و] حينئذ بالغ محتمل وعند ذلك يسخّر الله سمعه للخبر المثلج أو بصرَه لمعاينة الشاهد المُقنع على يدي الرسول الصادق ؛ ولا يتركه هملاً ولا يدعه مُغفَلاً ؛ وقد عدّل طبعه وأحكم صنعه ووفّر أسبابه ؛ فلا يحتاج عند معاينته رسولاً يُحيي [ل ١٨٥ و] الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويفلق البحر . إلى تفكير[3] ولا تمثيل[4] ولا امتحان ولا تجربة ، لأنّه قد فرغ من ذلك أجمع واستحكم عنده العلم الذي[5] أدّب به وهُيّأ له وأُورد عليه ؛ فإن كان لم يكن لذلك عامداً ولا إليه قاصداً ولا به معنيّاً[6] ؛ وإنما هو عبدٌ عبّأه سيّده ورشّحه مولاه وهيّأه خالقه لأمر لا يشعر به من مصلحته ولا يخطر على باله من الصنع له حين غذّاه به وقّاده إليه وهيّأه له ، فإذا ورد عليه دعوى رسوله ، وأمّته تشيد له بإحياء الموتى وفلق البحر وبكلّ شيء قد عرف عجز البشر عن فعله والقوّة عليه ، علم بتجاربه المتقدمة لعادة[7] الدنيا أن ذلك [ليس] من صنع البشر وأن مثله لا يقع اتّفاقاً وأن الحيل لا تبلغه ؛ فلا يمتنع من رؤية البرهان وفهم الدعوى أن يعلم أنّ الرسول صادق وأن الرادّ عليه كاذب .

[...] ولولا أن هذا كلام[8] لم يكن من ذكره بدّ لأنّه تأسيس[9] لما بعده ومقدمة[10] [ل ١٨٥ ظ] لما بين يديه وتوطئة له : لانتضبتُ[11] الكلام في المعرفة انتضاباً ، ولكن يمنعني عجز أكثر الناس عن فهم غايتي فيه إلاّ تنزيله وترتيبه ؛ وكل كلام أتيتَ على فرعه ولم تُخبر عن أصله فهو خداج لا غناء عنده وواهن لاثبات له .

---

١) ل : ولتعدية .
٢) ل : وثبت .
٣) ل : تمكير .
٤) ل : تمثيل .
٥) اخ : ماالذي .
٦) ل و اخ : مغيباً .
٧) ل و اخ : بعادة .
٨) ل : الكلام .
٩) ل و اخ : لا تأسيس .
١٠) ل : ومقدمته .
١١) ل : لا انتضبت .